هذا القرن الرابع عشر للهجرة الا وتكون ملكة الآداب عمت البلاد التي ينطق فيها بالضاد بل بالصاد والحاء والخاء والعين والغين والثاء والذال والظاء ورقيت لغتنا بمساعي المنورين من ابنائها امثالكم درجة عالية خصوصاً في البلاد التي كانت كعبة هذه اللغة ومنبعث انوارها واريد بها الحجاز واليمن ونجداً فان فيها بقايا من ارباب الذكاء النادر الى الآن من لو تمرنوا على العمل اذا تهيأت لهم الاسباب لاتى على ايديهم خير كثير للامة ولا يرجى ذلك الا متى انقطعت شأفة الفتن من تلك الاقطار وأمن الناس على اموالهم وارواحهم ليتفرغوا اوافرادمنهم للدرس والاستنارة

هذا ما احضرني في موضوع نهضة العربية الاخيرة القيته في هذه المحاضرة وربما خرجت عن البحث بعض الشيء وساحة عفوكم تسعني وانتم تعلمون اني على اوفاز استودعكم الله والسلام عليكم

# طريقة التعليم

كان من اول الاصلاح في اوربا أواخر القرون الوسطى وأوائل القرون الحديثة لما شرعت الامم الراقية فيها تدرس العلوم المادية والادبية ان انت على طريقة التعليم تصلحها بما يقتضيه حال الزمن والتجارب فتم لها في أوائل القرن الماضي تنظيم مدارسها على النحو الذي تراها عليه اليوم واصبحت يدخلها الطالب فيتعلم في بضع سنين لغة اولغتين او ثلاثا معها الى مايتحتم عليه معرفته من العلوم الطبيعية والرياضية والاجتماعية والادبية والاقتصادية فيخرج الطالب بعد هذه الدروس النظامية الاولية ملماً بفروع كثيرة بل بامهات العلوم واصولها المقررة لاعداد العقول للتفكير والانامل للكتابة والالسن للنطق والاجسام للحركة وهذه الدروس التي يسمونها دروس الموسوعات (الانسكلوبيذية) يمر فيها الطالب على كثير من المطالب تغنيه اذا اراد الاقتصار عليها والانصراف الى اكثر الاعمال التجارية والصناعية والزراعية والعلمية . واذا سمت به همته الى الاختصاص في علم واحد من العلوم التي ذاقها في الجملة يتمحض لها ويدخل مدارسها الخاصة كمدارس الزراعة والتجارة والمعادن والميكانيكيات والادب والطب

والهندسة والقضاء والجندية واللغات والفلسفة واللاهوت والاجتماع وغير ذلك من اصناف العلوم التي جعل لكل فرع منها مدرسة خاصة اوصف خاص يدرس فيها من تصح عزيمته على الامتياز في احد فروعها ليكون فيها مرجعاً ويبرز على اقرانه فينفع وينتفع

ولولا اصلاح طريقة التعليم والالقاء لم يتيسر للشاب ان يدرس في سنين قليلة مثل هذه الدروس الكلية ولكن اصول الكتب التي أُلفت بحسب سني الطلب وسن الطالب وطريقة الالقاء الشفاهي والاملاء الكتابي هي التي تفتح ذهن الطالب وتحبب اليه الدرس والبحث منذ الصغر فلا يتناول من العلم الا بقدر معلوم ولكنه يتناول اللباب ويطرح القشور ويقرأ المختصرات ابان دراسته كليات العلوم فاذا شب يتناول المطولات فتكون منه على طرف الثمام

فمثل هذا التنظيم في التعليم ثم الاخصاء في فرع او فرعين نبغ في الغرب رجال في علوم البشر لاشبه بينهم وبين رجالنا في سعة المدارك وبعد الهمم والعلم الواسع وبتربية بنيه على هذا الاسلوب المتقن نبغ في القرون الاخيرة افراد ليس في رجالنا من يضاهيهم او يبلغ علمه ربع علومهم امثال ديكارت وكونت وكانت وباكون وسبينوزا وبينتزلا وامرسون ونيوتن وهاكسلي وسبنسر وكيتي وشيلر وروسو وفولتير ومئات يتعذر الآن احصاؤهم

هذه المدارس وطرق تدريسها هي التي حرم منها الشرق الا قليلا ولايرجى تأسيسها على مايجب في البلاد المصرية والعثمانية الا بعد ان تكون المائة والخمسون طالباً الذين بعثت بهم نظارات الحكومة العثمانية الى كليات أوربا قد انجزوا الفروع التي يتمحضون لها ويعود اولئك الذين ارسلتهم الجامعة المصرية للاخصاء في فروع منوعة من العلم يدرسون في الجامعة بالعربية فيتخرج بهم ارباب الرغبات في العلم كما يتخرج الآن في السلطنة العثمانية اناس كثيرون بالرجال الذين درسوا الفنون العسكرية والطبية في المانيا او يتخرج المصريون بالاساتذة الفلائل الذين تعلموا في كليات انكلترا وفرنسا والمانيا على نفقة نظارة المعارف المصرية

متى كثر عدد المتعلمين على الطريقة الحديثة واصبح الاستاذ لايجلس في حلقة تدريسه وعلى منبر المئاة الا اذا كان انفى شطراً من حياته بالقعود على دكات تلك المدارس الراقية وأسهر الجفن في الليالي وراء المناضد وتخرج باعاظم اساتذتها الاعلام

هنالك قل للعثمانيين والمصريين انكم بلغتم درجات الامم الحية فجديرون وانتم ما أنتم ان يهابكم العدو ويحترمكم الصديق . واي سلاح امضى من العلم الصحيح والآداب الرائعة واي عاقل يبجل غير الحري بالتبجيل والاكرام ممن امتاز بصفات الرجولية الحقيقية

لاجرم ان اصلاح التعليم على الاسلوب الجديد وتدريس علوم الدنيا به ينفع اذ ذاك في احياء العلوم الدينية أيضاً لان الارتقاء سلسلة لايتيسر ان يكون بعضها عاطلا وبضعها حاليا بل هو كالبناء لايكون صحيحاً اذا تداعى منه جانب

متى حسنت طريقة التعليم لايقع في طالب العلم الديني بضع سنين مثلا في تعلم بعض العلوم الآلية ليحسن مطالعة عبارة مربية فينوص كما هو الحال في الروم ايلي والاناضول والشام سنين كثيرة في بحر الباب والمنصور والعزي والمراح والعوامل والاظهار والكافية والشافية والسمرقندية والمختصر والسنوسية والايساغوجي وغيرها من كتب النحو والصرف والبيان والمنطق ثم لايتلو شيئاً من العلوم التي يقصد تعلمها كالتفسير والحديث والفقه والكلام والحكمة .

وذلك كما يغوص طالب العلم في الازهر في قراءة الاجرومية والكفراوي والازهرية وابن عقيل والخضري والصبان وغيره من كتب النحو المطولة والمختصرة ينتقل من واحد الى آخر حتى يفرغ صبره ولو قرأ احد هذه الكتب المطولة قليلاً كابن عقيل وشرحه مثلا لاغنته عن هذا التطويل الذي يضيع به وقته ، ويتبلد ذهنه وتفوته الغاية المقصودة من الطلب واللغة آلة لاغاية . ولكن عقم طريقة التعليم قضى ان لايتعلم طلبة الجوامع والمدارس سواء كان في الديار المصرية والبلاد العثمانية الا هذه القوانين والقواعد ويحرموا من تطبيق النظر على العمل

وليت شعري اليس من فساد طريقة تعليم المشايخ ان لايعلم الطالب منهم كتاباً اوشذرة من علم الادب رائعة ليتفهم اثناء دراسته النحو والصرف والبيان معاني الكلام الفصيح ويطبق النحو والصرف والبيان والمنطق على العمل ثم يتأتى له تأليف جملة صحيحة عربية وكيف يتأتى للمرء اتقان لغة دون ان يطلع على كلام اهلها وكيف يؤلف الكلام من لايفهمه وهل اللغة الاسماع من اصحابها والجري على مناحي بلغائها وما نظن الغزالي وابن رشد وابن سينا وابن الطفيل وابن زهر وابا حيان وابن جرير الطبري والماوردي ومئات غيرهم في الاسلام كانوا يعرفون فروع النحو ودقائقه مثل ابن الحاجب وابن عقيل والبركوي والصبان واضرابهم من أئمته ومع هذا انتفعت الامة بكتب

أولئك الفلاسفة والعلماء انتفاعا يبقى أثره على الدهر ولم تعهد لهم غلطة شائنة ولا اسلوب ركيك

لا يتيسر اتقان لغة من لغات العالم كلها الا بالسماع من افواه اهلها وسلوك الطريقة العملية في اقتباسها فلو اتقن الطالب جميع قواعد النحو والصرف والبيان والمنطق كما هو الحال الآن في هذا الصنف من المتعلمين ولم ينظر في تحليل الكلام العربي واستظهار القدر اللازم من منثوره ومنظومه ولم يتدبر معاني الكتاب ولا اخذ بقسط من الحديث وغيره ما استطاع الطالب أن يفهم روح اللغة العربية على اصولها ومن لم يفهم اللغة كان حريا بأن لا يفهم اسرار الشريعة على ما يجب

ان المدارس الغير النظامية كالازهر والفاتح صدت الناس عن الطلب لما اعترضهم دونه من العثبات بالطريقة العقيمة المتبعة معهم واي طريقة أفسد من ان يظل الشيخ يشرح للطالب المبتدىء في اول يوم يشرع فيه بتعلم النحو كيفية اعراب البسملة ووجوه قراءتها على حين يكون الطالب غفلا لا يعرف الجار من المجرور ولا المرفوع من المنصوب ولا الصفة من الموصوف وهكذا يبقى الشيخ يضيع وقته ووقت الطالب على غير جدوى وقد رأيت من المشايخ من قرأوا العوامل في سنة والعوامل مثل فهرس لابواب النحو لا يبلغ ثلاث ورقات الا ان المدرس أوسعها شرحا وتحشية وتهميشا حتى صارت كتاب نحو مطول هيهات أن يستوعبه عقل طالب

ولما كان من خير ما تم من الاصلاح في الازهر على عهده الاخير الاستغناء ما أمكن عن الشروح والحواشي . ولعل المشيخة الاسلامية تنظر لطريقة تعليم طلبة الجوامع بما يقوم أودها فتقضي على طلبة العلوم الدينية ان يمتحنوا امتحانا عمليا لا نظريا ممزوجا بشيء من العلوم العصرية كما هو حال مدرستي دار العلوم والقضاء الشرعي . وتسير على هذا المنهج ادارة الازهر الشريف فيعود اليه سالف مجده ويخرج في السنين القليلة طلابا درسوا علوما كثيرة تنفعهم في جهاد الحياة